١٧- غزوة تبوك وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

غزوة تبوك

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ولما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله ﷺ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب سنة تسع(١).

عن كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة توبة الله تعالى عليه: «لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد»(٢).

وهذه الغزوة هي التي تسمى بغزوة العسرة، للظروف الشديدة التي خرج فيها رسول الله ﷺ من شدة الحر، ومن القحط الذي كان في المدينة في هذا الوقت، ومن السفر الطويل الذي ينتظره، فانتدب النبي ﷺ الناس للبذل، فقال ﷺ: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار في حجر النبي ﷺ، والنبي ﷺ يقول: «**ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم**»(٣).

وجعل فقراء المسلمين يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيرًا، والمنافقون يسخرون من هؤلاء وهؤلاء فيتهمون أهل الغنى والبذل العظيم بالرياء والسمعة، والفقراء بأن الله عن

(١) «الفصول في اختصار سيرة الرسول» ﷺ لابن كثير [١٨٧].
(٢) سيأتي تخريجه -إن شاء الله-.
(٣) رواه البخاري مختصرًا (٥/ ٤٧٧) «الوصايا»، والترمذي (١٣/ ١٥٣) «المناقب».

يسير صدقتهم لغنى، وفضحهم الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة التوبة التي تسمى بالفاضحة، حيث أنها فضحت المنافقين وأظهرت فساد نياتهم وسوء أقوالهم وأعمالهم، فقال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩][1] ففي مثل هذه الظروف القاسية والشدائد المتتابعة يظهر صدق الصادقين، وإيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما ظهر النفاق يوم أُحد ويوم الخندق، وامتدح الله عَزَّ وَجَلَّ في نهاية سورة التوبة التي نزل أكثرها في هذه الغزوة، المؤمنين الصادقين فقال تعالى:﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة:١١٧]. وتاب عَزَّ وَجَلَّ كذلك عن الثلاثة من المؤمنين الصادقين الذين لم يتخلفوا نفاقًا، وصدَّقوا الله ورسوله في أنهم لم يكن لهم أعذار تُبيح لهم التخلف، فكان الصدق سبب نجاتهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة وهلال بدريان سبقت لثلاثتهم السعادة وسبقوا إلى الإيمان والعبادة.

أما المنافقون فسلكوا مسالك شتى، فمنهم من اعتذر قبل الخروج وتعلل بالعلل الباطلة قَالَ تَعَالَى حاكيًا عنهم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٤٩]. فكانوا يظهرون خلاف بواطنهم وفضح الله عَزَّ وَجَلَّ بواطنهم فقال تعالى:﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا

(١) عن ابن مسعود قال: أمرنا بالصدقة قال: كنا نحامل قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع قال: وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقين: إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ [التوبة:٧٩]. ولم يلفظ بشر بالمطوعين رواه مسلم (٧/ ١٠٥) الزكاة. وقوله: «كنا نحامل» قال النووي: وفي الرواية الثانية: كنا نحامل على ظهورنا معناه نحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة أو نتصدق بها كلها ففيه التحريض على الاعتناء بالصدقة.

نَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨١]، فكان الدافع الحقيقي للتخلف هو أنهم بخلوا بالبذل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك لفقدهم الإيمان الصادق والرغبة فيما عندالله عَزَّ وَجَلَّ من الثواب العظيم والمقام الكريم، والدافع إلى البذل والجهاد هو الإيمان والاحتساب قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥]. ومن هؤلاء من خرج مع رسول الله ﷺ وقد بالغ في الإيذاء والاستهزاء برسول الله ﷺ وخيار أصحابه كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

قال ابن كثير: قال أبو معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره: «قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أري مثل قرائنا هؤلاء: أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنًا وأجبننا عند اللقاء فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦] وإن رجليه ليسفعان الحجارة وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله ﷺ»[1].

وهمَّ جماعة من المنافقين بأن ينفروا برسول الله ﷺ ويطرحوه وهم المقصودون بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٦٧) «دار المعرفة» بيروت.

فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

روى أحمد في «مسنده» عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديًا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينا رسول الله ﷺ يقوده عمار ويسوقه حذيفة إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل حتى غشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «**قد قد**» حتى هبط رسول الله فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار فقال: «**يا عمار هل تدري ما أرادوا؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ ويطرحوه**» قال: فسار عمار رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله ما كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر.

فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثًا، قالوا، والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم. فقال: عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. قال أبو الوليد: وذكر أبو الطفيل في تلك الغزوة أن رسول الله ﷺ قال للناس وذكر له أن في الماء قلة فأمر رسول الله ﷺ مناديًا لا يرد الماء أحد قبل رسول الله ﷺ، فورده رسول الله ﷺ فوجد رهطًا قد وردوه قبله، فلعنهم رسول الله ﷺ يومئذ[1].

وفي مقابلة هؤلاء المنافقين ظهر أيضًا صِدق الصادقين وإيمان المؤمنين فمن هؤلاء النفر الكرام الذين اشتاقوا إلى الجهاد وصحبة سيد العِباد، ولكنهم من الفقر بحيث أنهم لا يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم لغزو وليس عندهم ما يحملهم، فذهبوا إلى النبي

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٥).

ﷺ فاعتذر إليهم بعدم وجود ما يحملهم فعادوا كما وصفهم الله عَزَّ وَجَلَّ أبلغ وصف وأزكاه ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

قال القاسمي: روى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا: فقال لهم: والله لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون، وعَز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال:﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التوبة: ٩١][(١)].

وهم ولاشك الذين عناهم رسول الله بقوله وهو عائد من تبوك. «**لقد خلفتم بالمدينة رجالًا ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم في الأجر حبسهم المرض**»[(٢)].

واستخلف النبي ﷺ على المدينة علي بن أبي طالب فارس قريش وعز عليه رضي الله عنه أن يبقى بالمدينة مع النساء والصبيان. روى البخاري عن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًا. فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي**»[(٣)].

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/ ٢٩٤).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) «الإمارة»، وقال النووي: وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه والله أعلم النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٧١٦) المغازي، ومسلم (١٥/ ١٨٤) «فضائل الصحابة»، وأحمد (١/ ١٨٥)، والترمذي (٣/ ١٧٥) «المناقب»، مختصرًا مقتصرًا على الجزء الأخير.

أما عدد الجيش فقال كعب بن مالك: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ»[١] وفي صحيح مسلم «يزيدون على عشرة آلاف». وجزم ابن إسحاق أنهم «**زيادة على ثلاثين ألفًا**».

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ: «**اخرصوها**» فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق، وقال: «**أحصيها حتى نرجع إليك -إن شاء الله-**» وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: «**ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله**»، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طئ، وجاء رسول ابن العلماء صاحب أيلة إلى رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء، فكتب إليه ﷺ وأهدى له بردًا، ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى فسأل رسول الله ﷺ المرأة عن حديقتها: «**كم بلغ ثمرها**» فقالت: عشرة أوسق. فقال رسول الله ﷺ: «**إني مُسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث**»، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: «**هذه طابة، وهذا أُحد، وهو جبل يحبنا ونحبه**»، ثم قال: «**إن خير دور الأنصار: دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير**».

فلحقنا سعد بن عبادة، فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار، فجعلنا آخرًا، فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرًا؟ فقال: «**أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار**»[٢].

---

(١) وسيأتي تخريجه -إن شاء الله-.

(٢) رواه البخاري (٣/ ٤٠٢، ٤٠٣) «الزكاة باب خرص التمر»، ومسلم واللفظ له (١١/ ٤١، ٤٣) «الفضائل: باب معجزات النبي» ﷺ.

ومر النبي ﷺ على الحجر وهي ديار ثمود فأمر ﷺ أن لا يدخلوا مساكنهم وأن يسرعوا الخطى وأن يكونوا باكين، ونهاهم عن التزود من مياههم. عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»** ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى أجاز الوادي»[(١)].

وعنه رضي الله عنه قال: «إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[(٢)].

وعن ابن عباس قال: «قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن العُسرة فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويضعه على بطنه. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيرًا، فادع، فقال النبي ﷺ: «**أتحب ذلك يا أبا بكر؟**» قال: نعم. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوزت العسكر»[(٣)].

وعن معاذ بن جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا، حتى إذا كان يومًا

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٣٥) «الأنبياء»، ومسلم (١٨/ ١١٠، ١١١) «الزهد».

(٢) رواه مسلم (١٨/ ١١١) «الزهد». وقال النووي: وفي هذا الحديث فوائد منها النهي عن استعمال مياه بئار الحجر إلا بئر الناقة ومنها لو عجن منها عجينًا لم يأكله بل يعلفه الدواب، ومنها يجوز علف الدابة طعامًا مع منع الآدمي من آكله ومنها مجانبة آبار الظالمين والتبرك بآبار الصالحين.

قلت: قوله بجواز التبرك بآبار الصالحين ليس عليه دليل.

(٣) رواه البزار والطبراني في «الأوسط» وقال الهيثمي: ورجال البزار ثقات «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٤).

أخر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: «**إنكم ستأتون غدًا -إن شاء الله- عين تبوك، وإنكم لن تأتوا حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها حتى آتي**»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء.

قال: فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم. فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا حتى اجتمع في شيء قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماءٍ منهمر -أو قال غزير- شك أبو علي أيهما قال: حتى استقى الناس، ثم قال: «**يوشك يا معاذ -إن طالت بك حياة- أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانًا**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: ولما انتهي رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل أجربا وأذرح فأعطوه الجزية[2].

وقد مكث النبي ﷺ بتبوك عشرين ليلة[3].

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكًا عليها، وكان نصرانيًا، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**».

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر. فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ٤٠، ٤١) الفضائل: باب معجزات النبي ﷺ. وقال النووي: الشراك هو سير النعل ومعناه: ماء قليل جدًا، وقوله: «قد ملئ جنانًا»: أي بساتين وعمرانًا.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٣٧).

(٣) «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» [١٤٥] بإسناد صحيح.

فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته وقتلت أخاه وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس بن مالك قال: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»(١).

قال ابن إسحاق: ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته. فقال رجل من طيء يقال له بجير بن بجرة يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده بصيد البقر، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله ﷺ:

تَبَارَكَ سَائِقُ البَقَرَاتِ إِنِّي ... رَأَيتُ اللهَ يَهدِي كُلَّ هَادِ

فَمَنْ يَكُ حَائِدًا عَن ذِي تَبُوكٍ ... فَإِنَّا قَدْ أُمِرنَا بِالجِّهَادِ

فأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ثم انصرف إلى المدينة(٢).

ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم والقبائل العربية المتنصرة، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية، وفي طريق العودة مر النبي ﷺ على الحجر ديار ثمود وقد تقدم خبرهم.

---

(١) عن البراء بن عازب قال: أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه فقال رسول الله ﷺ: «**تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**» رواه البخاري (٦/ ٣١٩) «بدء الخلق».

(٢) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٤/ ١٧٨) باختصار.

وجاءه ﷺ خبر مسجد الضرار، وكان الذين بنوه قد طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه، فنزلت آيات سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فلما نزل بذى أوان جاءه خبر المسجد من السماء، فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف، ومعن بن عدي العجلاني فحرقاه وهدماه، فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه، فخرج الناس والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ

وبعض الرواة يهم في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه إلى المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، فلما أشرف على المدينة: قال: «**هذه طابة**» «**وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه**»[1].

---

(١) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٥٤٩، ٥٥١). والحديث رواه البخاري (٧/ ٧٣١) «المغازي»، ومسلم (٩/ ١٣٩) «الحج».

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد:

- **منها:** تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، ويعدوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

- **ومنها:** أن الإمام إذا استقر الجيش لزمهم النفير ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه.

- **ومنها:** وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه.

- **ومنها:** أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحملهم فقال: «**لا أجد ما أحملكم عليه**» فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

- **ومنها:** استخلاف الإمام إذا سافر رجلًا من الرعية على الضعفاء.

- **ومنها:** جواز الخرص للرطب على رؤوس النخيل، والعمل بقول الخارص.

- **ومنها:** أن من مر بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يقيم بها، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا.

- **ومنها:** أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك.

- **ومنها:** تركه قتل المنافقين وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا فهو توبة وإقلاع.

- **ومنها:** أن الإمام إذا بعث سرية فغنمت غنيمة، أو أسرت أسيرًا، أو فتحت حصنًا كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه. فإن النبي ﷺ قسم ما صالح عليه أكيدر من فتح دومة الجندل بين السرية الذين بعثهم مع خالد وكانوا أربعمائه وعشرين فرسًا وكانت غنائمهم ألف بعير وثمانمائة رأس، فأصاب كل رجل منهم خمس فرائض، وهذا بخلاف ما إذا أخرجت السرية من الجيش في حال الغزو فأصابت ذلك بقوة الجيش، فإن ما أصابوا يكون غنيمة للجميع بعد الخمس والنفل، وهذا كان هديه ﷺ.

- **ومنها:** قوله ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»[(١)]. فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع: وهي القلب، واللسان، والمال، والبدن.

وفي الحديث: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم**»[(٢)].

- **ومنها:** تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين ومأوى للمنافقين، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات.

- **ومنها:** أن التوقف لا يصح على غير بر ولا قربة، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو داود [٢٤٨٧] «الجهاد» بلفظ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» والدارمي (٢/ ٢١٣)، وأحمد (٣/ ١٢٤، ١٥٣)، والنسائي (٦/ ٧) وابن حبان [١٦١٨] «موارد»، والحاكم (٢/ ٨١) «الجهاد»، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي ولم أقف على لفظ «قلوبكم» في أي رواية في المواطن التي أشرت إليها فلعله رحمه الله ذكر الحديث بالمعنى.

(٣) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٥٥٨، ٥٧٣).

٢- قال الدكتور مصطفى السباعي ما ملخصه:

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلًا على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا [١].

قال الدكتور محمد السيد الوكيل ما ملخصه: لقد كانت لهذه الغزوة أثر عظيم في سكان شبه الجزيرة لا يقل روعة وجلالًا عن أثر فتح مكة ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عن عقولهم وهي إدراك الحق الذي بعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم لأن يسرعوا بالدخول في هذا الحق الذي دعاهم إليه.

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا فيهم عشرة آلاف فارس أمر لم تعرفه العرب من قبل في بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولاشك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم، وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهي مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل وفي وقت عسرة وجدب وفي ذلك النطام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وحزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشئون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون وهم في بلادهم، ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد حتى لا يدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التي لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واستردوا منهم الصليب المقدس وأعادوه إلى القدس في احتفال رائع، هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين، أفلا يكون ذلك دليلًا على قوة المسلمين

(١) «السيرة النبوية دروس وعبر» [١٦١].

وقدرتهم على مواجهة أي عدو يهددهم، هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام[١].

فصل في قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه:

قال كعب رضي الله عنه لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يُعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوي ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍ شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًا كثيرًا.

فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن إنه سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه.

فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئًا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض

(١) «تأملات في السيرة النبوية» لمحمد السيد الوكيل [٢٨٩] «دار المجتمع».

شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن ترحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بردله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلًا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقة، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه وكانوا بضعة وثمانين رجلًا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب. ثم قال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضي به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ «**أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك**».

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فأتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر

إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك، فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأُكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم. رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا[1] فيهما أُسوة فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يُكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا.

ثم أُصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تُعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت. فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام

---

(١) قال الحافظ: وممن جزم بأنهما شهدا بدرًا أبو بكر الأثرم وتعقبه ابن الجوزي ونسبه إلى الغلط فلم يصب. واستدل بعض المتأخرين لم يشهدا بدرًا بما وقع في قصة حاطب، وأن النبي ﷺ لم يهجره ولا عاقبه مع كونه جس عليه بل قال لعمر لما هم بقتله، قال، فأين ذنب التخلق من ذنب الجس؟ قلت: وليس ما استدل به بواضح لأنه يقتضي أن البدري عنده إذا جنى جناية ولو كبرت لا يعاقب عليها وليس كذلك فهذا عمر مع كونه المخاطب بقصة حاطب فقد جلد قدامة بن مظعون الحد لما شرب الخمر وهو بدري كما تقدم، وإنما لم يعاقب النبي ﷺ حاطبًا ولا هجره لأنه قبل عذره في أنه إنما كان قريشًا خشية على أهله وولده، وأراد أن يتخذ له عندهم يدًا فعذره لذلك بخلاف تخلف كعب وصاحبيه فإنهم لم يكن لهم عذر أصلًا. والله أعلم فتح الباري (٧/ ٧٢٤، ٧٢٥).

ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد؟ قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها.

وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك. فقلت لامرأتي: ألحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك قالت: إنه والله ما به حركة إلى شئ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره إلى يومه هذا فقال لي بعض أهلي: لو أستأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت على نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر.

قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلا ة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت

أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنانى، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت:يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ : «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله ﷺ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

قال كعب: كنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا

حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله:﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨]. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه(١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن في حديث كعب هذا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فوائد كثيرة:

إحداهما: إباحة الغنيمة لهذه الأمة لقوله خرجوا يريدون عير قريش.

الثانية: فضيلة أهل بدر وأهل العقبة.

الثالثة: جواز الحلف من غير استحلاف في غير الدعوى عند القاضي.

الرابعة: أنه ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يورى بغيرها، لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيستحب أن يعرفهم البعد ليتأهبوا.

الخامسة: التأسف على ما فات من الخير، وتمني المتأسف أنه كان فعله لقوله: «فيا ليتني فعلت».

السادسة: رد غيبة المسلم لقول معاذ: بئس ما قلت.

السابعة: فضيلة الصدق وملازمته وإن كان فيه مشقة، فإن عاقبته خير، وإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة كما ثبت في الصحيح.

الثامنة: استحباب صلاة القادم من سفر ركعتين في مسجد محلته أول قدومة قبل كل شئ.

التاسعة: أنه يستحب للقادم من سفر إذا كان مشهورًا يقصده الناس لسلام عليه أن يقعد لهم في مجلس بارز حين الوصول إليه.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧١٧، ٧١٩) المغازي، ومسلم (١٧/ ٨٧، ٩٨) «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار».

العاشرة: الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، وقبول معاذير المنافقين ونحوهم ما لم يترتب على ذلك مفسدة.

الحادية عشر: استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم، تحقيرًا لهم وزجرًا.

الثانية عشر: استحباب بُكائه على نفسه إذا وقعت منه معصية.

الثالثة عشر: إن مسارقة النظر في الصلاة والالتفات لا يبطلها.

الرابعة عشر: أن السلام يسمى كلامًا، وأن من حلف لا يكلم إنسانًا فسلم عليه أو رد عليه السلام يحنث.

الخامسة عشر: وجوب إيثار طاعة الله ورسوله ﷺ على مودة الصديق والقريب وغيرهما، كما فعل أبو قتادة حين سلم عليه كعب فلم يرد عليه، حين نهى عن كلامه.

السادسة عشر: أنه إذا حلف لا يكلم إنسانًا فتكلم ولم يقصد كلامه بل قصد غيره فسمع المحلوف عليه لم يحنث الحالف لقوله: الله أعلم. فإنه محمول على أنه لم يقصد كلامه كما سبق.

السابعة عشر: جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى لمصلحة، كما فعل عثمان والصحابة رضي الله عنهم بالمصاحف التي هي غير مصحفه الذي أجمعت الصحابة عليه، وكان ذلك صيانة فهي حاجة وموضع الدلالة من حديث كعب أنه أحرق الورقة وفيها لم يجعلك الله بدار هوان.

الثامنة عشر: إخفاء ما يخاف من إظهاره مفسدة وإتلاف.

التاسعة عشر: أن قو له لامرأته الحقي بأهلك ليس بصريح طلاق، ولا يقع به شيء إذا لم ينو.

العشرون: جواز خدمة المرأة زوجها برضاها، وذلك جائز له بالإجماع، فأما إلزامها بذلك فلا.

الحادية والعشرون: استحباب الكنايات في ألفاظ الاستمتاع بالنساء ونحوها.

الثانية والعشرون: الورع والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع في منهى عنه، لأنه لم يستأذن في خدمة امرأته له وعلل بأنه شاب أي لا يأمن مواقعتها وقد نهى عنها.

الثالثة والعشرون: استحباب سجود الشكر عند تجدد نعمة ظاهرة أو اندفاع بلية ظاهرة، وهو مذهب الشافعي وطائفة، وقال أبو حنيفة وطائفة: لا يشرع.

الرابعة والعشرون: استحباب التبشير بالخير.

الخامسة والعشرون: استحباب تهنئة من ورقة الله خيرًا ظاهرًا، أو صرف عنه شرًا ظاهرًا.

السادسة والعشرون: استحباب إكرام المبشر بخلعة أو نحوها.

السابعة والعشرون: أنه يجوز تخصيص اليمين بالنية فإذا حلف لا مال له ونوى نوعًا لم يحنث بنوع من المال غيره، وإذا حلف لا يأكل ونوى خبزًا لم يحنث باللحم والتمر وسائر المأكول، ولا يحنث إلا بذلك النوع، وكذلك لو حلف لا يكلم زيدًا ونوى كلامًا مخصوصًا لم يحنث بتكليمه إياه غير ذلك الكلام المخصوص، هذا كله متفق عليه عند أصحابنا ودليله من هذا الحديث قوله في الثوبين والله ما أملك غيرهما، ثم قال بعده في ساعة: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة ثم قال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

الثامنة والعشرون: جواز العارية.

التاسعة والعشرون: جواز استعارة الثياب للبس.

الثلاثون: استحباب اجتماع الناس عند إمامهم وكبيرهم في الأمور المهمة من بشارة ومشهورة وغيرهما.

الحادية والثلاثون: استحباب القيام للوارد إكرامًا له إذا كان من أهل الفضل بأي نوع كان وقد جاءت به أحاديث جمعتها في جزء مستقل بالترخيص فيه والجواب عما يظن به مخالفًا لذلك.

الثانية والثلاثون: استحباب المصافحة عند التلاقي وهي سنة بلا خلاف.

الثالثة والثلاثون: استحباب سرور الإمام وكبير القوم بما يسر أصحابه وأتباعه.

الرابعة والثلاثون: أنه يستحب لمن حصلت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه كربة ظاهرة أن يتصدق بشيء صالح من ماله شكرًا لله تعالى على إحسانه وقد ذكر أصحابنا أنه يستحب له سجود الشكر والصدقة جميعًا وقد اجتمعنا في هذا الحديث.

الخامسة والثلاثون: أنه يستحب لمن خاف أنه لا يصبر على الإضافة أن لا يتصدق بجميع ماله، بل ذلك مكروه له.

السادسة والثلاثون: أنه يستحب لمن رأى من يريد أن يتصدق بكل ماله ويخاف عليه أن لا يصبر على الإضافة أن ينهاه عن ذلك، ويشير عليه ببعضه.

السابعة والثلاثون: أنه يستحب لمن تاب بسبب من الخير أن يحافظ على ذلك السبب. فهو أبلغ في تعظيم حرمات الله، كما فعل في الصدق والله أعلم[1].

٢- وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فيما اشتملت عليه قصة الثلاثة من الحكم والفوائد ما ملخصه:

- **منها:** جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن على سبيل المثال الفخر والترفع.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٠٠، ١٠٢).

- **ومنها**: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها ، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما تثبت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه حال بينه وبين قلبه وإرادته فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

- **ومنها**: معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاذه والسرور به.

- **ومنها**: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتم وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة كل التعب فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادئ حلاوات في العواقب، وحلاوات المبادئ مرارات في العواقب.

- وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقين فَجُرمهم أعظم من أن يُقابل بالهجر، فدو اء هذا المرض لا يعمل في مرضى النفاق ولا فائدة فيه.

وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مُستيقظًا حَذِرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلى بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقو بة التي لا عقوبة معها.

وفي أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين.

أحدهما: كلامه لهم وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

الثاني: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد في العبادة ، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذان بقرب الفرح وأنه قد بقى من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام، ولم يأمرهم بذلك في بداية المدة رحمة بهم.

- وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبول الله توبته، لقول النبي ﷺ : «**أبشر بخير يومٍ عليك منذ ولدتك أمك**»[(١)].

٣- وقال الحافظ رحمه الله: **وفيها**: عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالًا حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر.

- **وفيها**: أن القوى في البدن يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف.

---

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٣، ٥٩٢).

- **وفيها**: ترك السلام على من أذنب وجواز هجره أكثر من ثلاث، أما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعيًا[١].

٤- وقال الدكتور مصطفي السباعي ما ملخصه: وفي قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد إيثارًا للراحة على التعب، والظل على الحر، والإقامة على السفر، مع أنهم مؤمنون صادقون درس اجتماعي من أعظم الدروس، فقد استيقظ الإيمان في نفوسهم بعد قليل فعلموا أنهم ارتكبوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ والمؤمنين إثمًا كبيرًا، ولما علم الله منهم صدق التوبة، وبلغ منهم الندم والألم والحسرة مداه تاب الله عليهم، فلما بشروا بذلك كانت فرحتهم لا تقدر، حتى انسلخ بعضهم عن ماله وثيابه شكرًا لله على نعمة الرضى والغفران، إن مثل هذه الدروس تمنع الصادق في إيمانه عن أن يتخلف عن عمل يقتضيه الواجب أو يرضي لنفسه بالراحة والناس يتعبون، والنعيم و الناس يبتسئون، وتلك هي طبيعة الإيمان أن تشعر دائمًا وأبدًا أنك فرد من جماعة وجزء من كل، وأن ما يصيب الجماعة يصيبك. وما يفيدها يفيدك، وأن النعيم لا معنى له مع شقاء الأمة وبؤسها، والراحة لا لذة لها مع تعب الناس وعنائهم، وأن التخلف عن الواجب نقص في الإيمان وخلل في الدين وإثم لابد فيه من التوبة والإنابة[٢].

(١) باختصار من «فتح الباري» (٧/ ٧٢٩، ٧٣٩).

(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (١٦٢، ١٦٣).